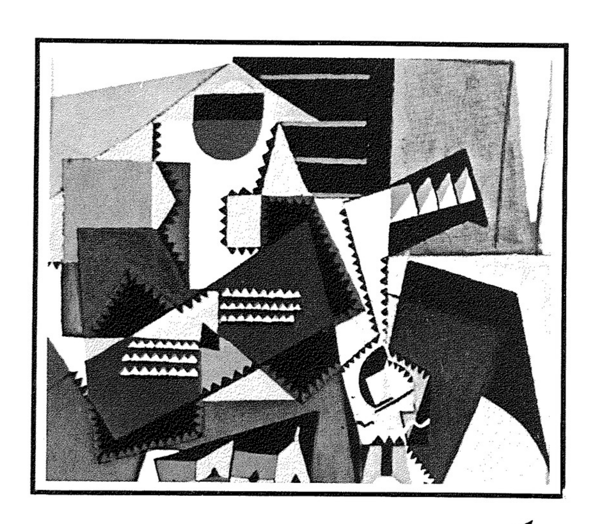
علي كنعان



أسئلة للرياح

شعر

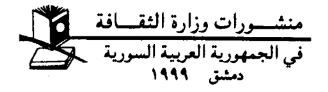
إهـــــــداء ٢٠٠٧
مديرية المطبوعات والنشر – وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

الإشراف الفني زهير الحمو

عَلِي كَنعَان

أَسئِلَة لِلرِّيَاح

شِعر



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٩

أســئلة للريــاح : شـعـر / علي كنعـان . - دمشق : وزارة الثقـافـة ، ١٩٩٩ . - ١٣٦ ص؛ ٢٠ سم . - (من الشعر العربي؛ ٧٠) .

١- ٨١١٫٩٥٦١ ك ن ع أ ٢- العنوان ٣- كنعـان
٤- السلسلة مكتبـة الأسـد

الايداع القانوني : ع - ١٠٢٧ / ٦ / ١٩٩٩

من الشعر العربي

« ٧٠ »

شظايا

-١-

في سباق الخيول

مدَّت الخنفساء

رأسَها تطلب الجائزة

صاح فأر الحقول:

«إنَّها الوعلةُ الفائزة!»

من يلوم عِصيَّ الغجر

حين تنسى السماء

رعدَها في أديم الطّبول؟!

-٢-

النار تحت قشرةِ الصوَّان

والدفءُ في جوانح الشجر

من يدَّعي جنونُه قوسَ المطر؟

ومن يجاري نفحاتِ اللطف والصفاءِ

في تناغم الألوان؟

-٣-

ملكٌ من زجاج

وقلاعٌ خزف

في بيوتِ الدجاج

كلُّ حقٍّ تنادي به . .

حسبوه ترف

فاحترِسْ أن تبيتَ وراء السياج

واقتصِدْ بالعلف!

-٤-

مثل نهرٍ يتلوَّى في جليدِ الحقبِ

تنفر الأفعى وتغلي في دمي

آنَ يا سيدتي أن تعلمي

أنَّ خمراً كنزيفِ العلقمِ

هي من أوشالِ ذاك العنبِ

-٥-

بدأ الإسلام بالكلمةِ

مصباحاً من الرحمةِ

والحقِّ المبين

ثم صار السيفُ سلطانا وحيداً

في حوار المسلمين!

* * *

أمرهم شورى . . ولكنْ

بِسُعارٍ قَبليٍّ . .

أو بما يشبه حُمىًّ الإنقلاب العسكري

أنزلوا اللَّه إلى السُّوقِ

وسدُّوا كلَّ أبوابِ السماء

علَّبوه . . وتنادوا ليبيعوا باسمهِ

داراتِ عدنٍ وحوانيتَ القضاء

وعلى مائدة التاريخِ

مازالت وفود الفقهاء

تتغنَّى أن بيتَ المالِ خيرٌ

من ألوف الخلفاء!

-٦-

شارعٌ مثقل بالضَّنى والتعب

يستبدُّ بأقداره عنكبوت

عالم ينزوي موغلا في سديم الغياب

حائرا بين غيم التكايا وذل البيوت

تاجر مفلس. لايؤمل دنيا ولاآخرة

فارس أعزل يتقي طعنة غادرة

دافنا رأسه في رماد السكوت

طفلة تحتمي بالحجاب

أمة تشتهي لو تموت

قبل أن يعرضوا لحمها

في صحون الكلاب!

-٧-

طاف الهوى بالأرضِ

أشعلها . . فأزهرت الجراح

طابت مواسمنا وفاضت

بالبيادر والأغاني والأقاح

وتوهَّجت سحب الجنون

الليل يوشك أن يغادرنا

بلا نعشٍ ولا أسفٍ

ولكنَّ الصباح

مازال أبعد ما يكون!

١٩٩٨

الخلاص

قبيلة تبحث عن خلاصها السحري

في عنكبوت الشعر، في مسارب الجنون

يقال إن شيخها - قطبَ الرحى - مسكون

بكل ما يضفي على جلاله البهيّ

من سرٍّ وحدانيةِ اللّهِ

وإعجازِ النبيّ

* * *

قبيلةٌ مثخَنةٌ بدائها الخفيّ

ريحُ السمومِ حولّت واحاتِها

إلى ملاهٍ وتكايا وحصون

أعيانُها الصيِّدُ سكارى دائماً

بنُعمياتِ البيع والبغاءِ والمجون

وأهلها داخوا مع العصر الذي

تحكمه طاحون

يلهو بهم تهافتُ الموتى

وحقد التاجر الخصيّ

فلستَ تدري أيُّهم ميْتٌ

وأيٌ حيّ؟



قبيلةٌ تبحث عن خلاصها . .

تغلغلت في غَبَشِ اللاهوتِ،

في مجاهل الحروف والأسماء

غاصت إلى لبابها السِرِّيّ

واستكشفت طفولةَ الأشياء

لكنَّها تناستِ الفعلَ الذي

يحوِّل الزيت إلى ضياء

فلم تجد في رأسها الصخريّ

من بارقٍ ترجوهُ

إلا سحبَ الأفيون!

١٩٩٠/٤/٥

الكثبان

ربوةٌ . . ربوتان

من غضار اليمامةِ

أو من حرير الشآم

مدائن رجراجة بالربا والمعارج

تهيم بعشّاقها في ظلال الغمام

وتوقظ في غبش الذاكرة

صباباتِ «كثبان عالج»(*)

ونهر من الوهج والأرجوان

(*) حكايتها في (رسالة الغفران) للمعري.

ضفتاه تكسَّرتا

- شغفاً أو سغب -

كجناحَيْ يمام

زورقٌ بات مكتنزاً بالندى

واللهب

وفي موسم الحرث والنزوان

تكوَّر وانفجَّ

ثم انطوى وانزوى

أرنباً خائفا في خليج الأمان

١٩٩١

الشاهدة

كان يمشي حافياً بين الصخور

تأكل الأشواك أزهار صباه

ويداري عيشةً جرباءَ

لاتقلبها حتى الشياه

ركب الموج الذي يرفعه

أعلى فأعلى . .

ثم يرتاد به أروقةَ الغيمِ

وأحلامَ النسور

حطّت الريح بهِ في ترفِ الشَّرقِ

وطغيان القصور

فتناسى أمَّهُ،

زوجته الأولى . .

وأطياف العصافير

ولم يرحم أباه

صار مخلوقاً بلا ذاكرةٍ،

كتلةَ شحمٍ وغرور

ربما . . نصفَ إله!

* * *

وتدور الساعة العشواء . .

ليلٌ يتمادى

ورياحٌ لاتواتي

وبحارٌ من جليد

وهو في صحرائه ذئب وحيد

* * *

في عشيّاتِ اكتمال القمر الراشحِ

من بين كوابيسِ الضنى

كان يبكي مثلَ جنديٍّ جريح

نُسِفت من خلفه كلُّ الجسور

أتراه كان يدري

أنَّ مستقبلَه في أطيبِ الأنواءِ

لاأكثرَ من شاهدةٍ

مشلوحةٍ

بين ملايين القبور؟!

١٩٩٠/٣/٢

الإعصار

«من الممكن أن يسحق الإنسان
لكنه لايُهزم أبداً. . .»

– هيمنغواي: ***(الشيخ والبحر)***

حين يفور البحرُ

كي يعلن عن أوجاعِه السوداءِ

أو طموحه المكبوت

وعندما يدمدم الزلزال

أنّ ضمير الأرض لايحتمل السكوتَ

عما يغتلي في غابة الإنسان من أهوال،

من يدَّعي أنَّ لديه حكمةَ الهنودِ

أو براعةَ الحواةِ

في معرفةِ الفصولِ

والتمييز بين الماء والنارِ

وبين صفرةِ الجوعِ

وصنَّاجاتِ رأسِ المال؟!

* * *

إعصار (خَرْبَطْشوفِيا)

يغزل بين الألبِ والأورال

يولج سور الصين في صحراء نيڤادا

ويُصلي بنَما على جمار الطَّلْحِ

بين عدوة الخليج والصومال

وتنتهي أفريقيا . .

- وبعضهم يدغم فيها كندا وآسيا-

جزيرةً قفراء في بحر الشمال!

عاصفةٌ كونيةُ الأهواءِ والذيولِ

- اللّهمَّ يا ستَّار ، أبعدنا عن الشطط ! -

عاصفة تخبِّص اليسار باليمين بالوسط

وتعجن الممكنَ بالمحالِ

والجوابَ بالسؤالِ •

والصحيح بالغلط

ماذا تبقَّى للضمير الحرِّ

كي يختار ما بين الخيال والخبال؟!

جربانيا . .

مورانيا . .

لوبانيا . . . (*)

هل استحال كوكب البشر

غزالة نجدية طريدة

تكاد لاتسلم من كمين

إلا لكي تساق دون رحمةٍ

إلى كمين؟

وقادة الجحافل العتيدة

أقمارهم تلاحق الأثر

وفي كهوف الشرق والغرب معاً

(*) إن خلط الحروف مقصود في هذه الأسماء وليس فانتازيا عابثة .

يهيئون النار والسكِّين!

* * *

ياعشّاق الفلَك الأمريكيِّ الأغبر

من يعرف لونَ البابا؟

نجمَ العرّاب؟

أخضر؟ أحمر؟ أبيض؟ أصفر؟

أم ممزوج من كل الألوانِ . .

ومعصور من كل الأعناب؟!

* * *

جمرانيا . . بلفاكيا . . شنغاريا . .

جمرانيا . . دارت بها فحولة الدولار

في نزوات سوقه السوداء

داخت من العشق . .

وغشّاها سديم الحال

وقبل أن يرحل فرسان الدجى

باتت بلا سور ولا سروال!

بلغاكيا . .

تطارد الحروف في لوائح الأسماء

تطمس بالرصاص أطياف رسيس الذاكرة

خشية أن يطغى عليها صاحب الإسراء!

شنغاريا . . تنخر فيها آفة أدهى من الجرب

هل يغفر الدانوب للطحالب المسعورة الأنياب؟

تمتصُّ من ضفافه النغمةَ

والنسمةَ

والنجيع

لكي تغذّي هدهد الخرافة

ويرسم القناصة المرتحلون سرباً من متحف الخزر

خرائطاً جديدةً للنهبِ والإبادة؟!

فليُحشر الأهلون في أقبية العلَب

أو يطردوا خارج قوس البحرِ

والهلالِ

والمطر

خارج هذا الوطنِ الذاهل

حتى يمر الجنرال السامري زاهياً بجيشه الجرّارِ

من سبها . إلى بابل!

يازمناً يلتهم التجار والرعاة فيه

لحم نبيهم . . قبل أن يساوموا على القطيع

نَمْ هانئا مستبشراً يا صاحب السعادة

سيُغسَل التاريخ من جرائر العرب!

* * *

مورانيا . . . جربانيا . . . نوراميا

كفى عبثاً يا طيور الخرائب

يافقهاء الجحيم

لن أبدِّد زيتي لكي تشبع المحرقة

إن تحت الدخان وحوشاً مخالبها دامية

وأنا أتوجس أن تركب الموجة التالية

ومهما تكشَّف لي من جنان النعيم

خلف هذا العجاج الوخيم

لن أقول مع الشامتين :

«مادت الأرض وانخسفت هيبة السلطنة

فيا منجل الشؤم . . ياشبح المطرقة

الرياح التي حاولت أن تعيدَ

ظلالَ القياصرة الأوّلين

وشتَّى فنون الجراحة والأدوية

ومكر النوادي لتستبدل الأحصنة

ويؤتى بباقي الطروح من الخاصرة

كلُّها سقطت . .

تحت موج انطلاق العبيد

سقط الطب . . والطبل . . والطاغية!»

أنا من طينة لاتبيح الشماتة بالميِّتين

(من يحب التسلِّي بلحم أخيه القتيل؟!)

ولكنني أنبش العالم المتخشِّبَ

عن بذرةٍ حيةٍ مثل إشراقةِ الذاكرة:

ألم يعلموا أنَّ طوطمهم ساقطٌ من سنين؟

وسيلُ الرصاص الذي جرف الجثّةَ البالية

إلى حمأِ الدودِ في وحشةِ الهاوية

لم يكن غير تذكرةٍ للبثور التي

عُبِّئت بالصديد

من دمامل هذا الزمان الهجين

* * *

وأنا لن أقول مع الشامتين:

«مورانيا.. مدرسةٌ للصيرفي الجائع المتخَم

موعظةٌ كبرى لمن يدركُ ما تضمره الساَّعةُ

خلفَ وجهها الرصين..»

لكنني أنتظر الغيم الذي يجيء بالبلسم

وأشتهي صاعقة تنقضُّ مثل القدر المحكم

وأرصد الريح التي تنسفهم

في كل فجٍّ ما حقٍ مبهم

* * *

[عاصفةٌ شهيةُ الألوانِ . .

- إياكم وخضراء الدمن!

عاصفةٌ؟ . .

لاخوفَ من عواصفِ الدُّنيا

ولاحزَنْ

لأنَّنا - وللعيونِ الساَّهراتِ الحمدُ-

في حِرْزٍ رصاصيٍّ حريز

من صرعةِ الأحلامِ والأسئلةِ الهوجاءِ

والجنون

إعصارُهم . .

لن يهتدي إلى حمى أبراجنا المنيعة

تحت جناحِ الغيبِ والقِطْرانِ والأفيون

نحن هنا . . أشياءُ لا يمسُّها عدوى ولا عطب

نعيش في غيبوبةٍ خارجَ ملكِ اللهِ ،

خارجَ كلِّ وهلةٍ

تحتمل التغيير والزلل

إعصارُهم . .

قد يستبيح ما وراء الأفق الساجي

ويستولي على زحل

لكنَّهُ أبعد ما يكون عن سواحل العرب !]



موررانيا . . لوبانيا . . صورانيا . .

خلِّي دمي يا آية الجنون

مختبئاً كالسين في غلالة السكون

لابدَّ من صنعا . . وإن طال السفر

إلى أقاصي جزر الطاعون

لابدَّ من مرسى لهذا النون

* * *

مورانيا . . يا ملكَ المجاعةِ الأرقم

لاعاصم اليوم من الجيل الذي

جرَّعته بحراً خرافياً من العلقم

نوماريا . . ياسرطانَ العسفِ

يامستنقعَ الفساد

دنت مواعيدُ الجنى . .

وأشرِعت مناجلُ الحصاد

تخطف عينَ الشمسِ

لاتخشى . . ولاترحم

رونامِيا . . هذا المخاضُ سرمدٌ لاحدَّ له

لكنَّ شيئاً داهماً كالزلزلة

وخاطفاً مثل انقضاضِ المقصلة

يصيح ملءَ الزمنِ الأبكم :

«لم يبقَ للباغي سوى جهنَّم ! »



جربانيا . . مورانيا . . لوبانيا . .

تحرَّك النهر الذي واروْهُ

في غيابةالمكتب والمصنع والمنجم

كان قطيعاً

-هكذا تصوَّروهُ!-

جاهزاً للسلخ والشواء

لكنَّه آثر أن يلقي على

أستاذه العلامةِ الملهم

بلاغة الدرس الذي

- هيهات!-

لايُنسى . . ولايُختَم

* * *

لوبانيا . . لوصانيا . . صورانيا . .

هذي فلسطينُ على الأبواب

تهزّنا بكلِّ ما في روحها من قوةِ الرجاء

وكلِّ ما في حلمِ الثورةِ

من سواعد البأس

وأحجار السماء

تمطرنا بمارجٍ من نار

يندحر الموت الذي حاق بنا

في ظلمات القمع والضغائن العشواء

ودون نهر الشهداءِ

يسقط الحصار

تحتضن الساحاتُ في نهوضِها الشعبيِّ

أمواجاً وأمواجاً من الأحباب

فتزدهي مواسم العناق والعتاب

على مدى أفراحنا تزغرد الحنّاء

وتصدح الآفاقُ والقلوبُ

بالرايات

لاقهرَ بعد اليومِ

لاذلَّ

ولاظلَّ لأعداء الحياة

١٩٩٠/١/٢٤

عريس الرماد

زاهياً راح يمشي وراء الجنازةِ،

ديكاً من القش منتفخ الريش بالأوسمة

يتملّى عروق الرجال التي اختنق الدم فيها

ويسخر من وطأةِ الشمسِ

والنعشُ فوق الرقاب

يشتهي أن يرى كلَّ ما حولهُ

لوحةً من دمٍ وخراب

ويكتم في صدره ضحكة مبهمة

* * *

يعبر الموكبُ المخمليُّ جسورَ المدينة

وأبراجَ غيلانها المتخمة

ويجتاز بؤسَ الضواحي

تاركاً خلفه قطط السوق والأقنعة

تجاهد كي تختلي بكنوز الخزينة

وتسطو على القوت والأمتعة

❊ ❊ ❊

[في نقوش المرايا وراءكَ

في قاع خابية الذكريات

في الرسوم التي طمستها فصول الغبار

يرفع الطفل إصبعه بالسؤال

فتهوي على وجهه قبضة الكرم الأبوي

كصاعقة في شعاف الجبال

وتهوي على قدميه سياط التتار

وتشتدُّ من حول أنفاسه حلقات الحصار . .

ولكنَّ للموت حكمته البالغة

فسيف العدالة في كفهِ

لايحابي أعزَّ الرجال]

* * *

وراء المدى تختفي العربات

ويبتلع الغيب حاشية العنكبوت

فيخطر في الأفق طيف البشارة

يطلق النهر فرحته مهرةً حرةً

في فضاء الرُّبا والبيوت

عاشقاً لايداري ذئاب الحمى ،

لايخاف

وتنهلُ نجوى عصافيره المبدعة

عسلاً شافيا في عروق الضفاف

* * *

في أعالي ثبير (*)

ربضت بانتظار وليمتها ذئبة المقبرة

والرجال المساكينُ

أحصنةٌ تصعد الشِّعبَ

مثقلةً بالضنى والهجير

والعريس الرماديُّ يمشي الهوينى

(*) اسم مكان قرب مكة . . والدلالة رمزية وليست جغرافية .

عمودا من الثلج مستحضرا من ليالي ثمود

همَّه كان أن سوف يدفنهم واحداً واحداً

ويعود

وفي يده صولجان الخلود

كان يمضي حريصاً على تاجِه،

ساهياً عن خطاه

ذاهلا عن أمور كثيرة

ربما فقد الحس والذاكرة

ولكنَّ زوجاتِه وعشيقاتِه والجواري

يغمغمن خلف الستائر بين الأسى والتشفِّي:

«.. عاش دهراً بلا ذاكرة!»

وتغزل في رأسه موجةٌ:

«ما هي الذاكرة؟»

فيغلي كأنَّ سياطا من النّار حزت قفاه:

«قفوا واجلبوا كل من ضم في بيتهِ

هذه الكلبة الفاجرة!»

ولكنَّ صرخته هوَّمت وتلاشت

مع الموجة العابرة

وهو يمشي وراء جنازتهِ..

لا رجاءَ ولا ومضة من أمان

منذ أن لمح البهلوان

* * *

أنزلوا نعشه فتلوّى

وعضّ على روحه خشيةَ الغثيان

(للترابِ هنا والحجارة رائحةٌ لاتطاق)

صاح : «هاتوا قصوري

وهاتوا حدائقها كلَّها»

عبرت نسمةٌ وأطارت بقايا

من الزبد المترامي على شفتيه

صاح : أين وزير البلاط؟

نائم، يالعين؟

أتغفل من دون إذني؟!»

طار من آخر التربة الخاوية

غرابٌ وحطَّ على كومةٍ من عظام

فتحوا قبرَهُ..

وبلا دمعةٍ

وبلا آيةٍ . . أنزلوه

وفي كنف الدود والوحشة الضارية

تركوه

ينام وحيدا مع الأوسمة

وعاد الرجال إلى أهلهم بسلام

١٩٩١/١١/١٧

زمن العنكبوت

-١-

عبثاً دماء المسجد الأقصى تنادينا

عبثاً تحرك نارها فينا

ياليتنا موتى

ليصوغ أطفال الفدى أشلاءنا

وردا وأحجارا

ياليتنا موتى . .

(واللّي استحوا ماتوا!)

-٢-

لاخوفَ بعد اليومِ يازمانَنا الأجرب

لاخوفَ من جوعٍ ولافقرٍ ولامرض

فأمنا الحنون أمريكا

ودون أي مِنَّةٍ ولاغرض

تسدّ ما نحتاجه بالعملة الصعبة

وإن يكن معتصراً

من دمنا وغدنا الأصعب

فالغاية النبيلة

- وليفرشوا دروبها بجثث الأطفال-

لابدَّ أن تبرر الوسيلة!

-٣-

هل أفرخت يمامةُ الدارِ

في ظل هذا الدارع الضاري؟

قلبي على هديلها راعف

ما بين قناص وسمسارِ

* * *

راعني في الأفق الهنديِّ نهرٌ من دمٍ آتٍ

وداست كبرياءَ الروحِ

أمواجُ سعار أطلسي

عالمٌ يغلي بأحقاد المغوليين،

قطعانُ وحوشٍ سلحت أنيابها البيضَ

بدرعٍ نوويّ

والأهالي ذاهلون

ومخاتير القرى هاجوا وماجوا

وتمادوا بخصامٍ عبثيّ

فرجة للعالم المأزوم . . فليضحك علينا

(نحن عشاقَ الديوكِ العنتريّة)

وليُزِحْ أطفالَنا من دربه مستنفرا

كلَّ ما يملك من أهوال آلات جهنم

فدماء العربي

لم تزل ماء صديدياً

ولن ترقى إلى حاشية الزيت الخرافي المفدَّى

قبل آلاف السنين .

— ٤ —

في دارنا دجاجة منتوفة الجناح

تبيض – كي يستأجروا أنيابها –

شلال دولارات

لكنها تجهل أن العرش والشرع معاً

في عدوة الخليج

تشكلا من معدن واحد

وظلَّ حبلُ الشعرِ مفتولاً على الأعناق

-٥-

ها هنا نحن في الزمن العنكبوت

كل حلمٍ علقنا به ذات صيفٍ

صحا يتملَّى بهاء انكساراته . . ويموت

والرغيفُ المعلَّق في حلمةِ الغيمِ

ينهرنا بالسكوت

الشوارع تلتمُّ خوف انفجار القبور بسكانها

وتسيخ البيوت

* * *

يا قطيعَ الكلابِ انتظرْ عظمةً دسمة

سوف تهمي عليك معلَّبةً، آخرَ الليلِ،

من شرفة العنكبوت

تسلَّق . . وطاولْ بها قبَّةَ الملكوت

ولاتنسَ أن تُسَمِّيها «مكرمة»!

-٦-

كوكبٌ - ريشةٌ في مهبِّ الرياح

أمةٌ - وطنٌ - بيدرٌ مستباح

مدينةُ أطفالك الزغبِ،

دارُ الصبا والمواعيدِ

غرفةُ نومكَ . .

لينُ الفراشِ ورائحةُ الدِّفءِ . .

حتى الوسادة في صمتها واستكانتها . .

فاكهةٌ مستباحة

كيف تغفو؟

وكيف تعيش وتحلمُ؟

كيف تعاشر أنثاكَ؟ . .

تُخصى . . وتنسلُ

في زمنٍ مستباح؟!

كيف تسأل أو تتساءل

كيف تفكِّرُ؟

كيف تحاور في لغةٍ مستباحة؟!

-٧-

يا مؤمنون خبِّئوا إيمانكم

أبعد مما تصل العيون

يا ساخطون حاذروا أن تكشفوا أوراقكم

وخاتلوا دائرة الظنون

يقال إن الله -جل وعلا-

مطالبٌ أن يستقيل

ما دام لايصفح عن مجازر الأطفال

في القدس، في جنين، في غزة والخليل

لأن أمريكا

حاضنةَ السفلس والطاعون

تريد أن تكون، دون صاحبٍ ولاشريك

إلهة العالم

ولتغرقِ الأرضُ التي نطعمها أجسادنا

ولتغرقِ الكواكبُ المجاورة

بالدم والأفيون!

-٨-

شدِّي على الأوجاع يا أمتي

وانتزعي الحلمَ بإصرارِ

موج الصليبيين يجتاحنا

معربدا في شكل دولارِ

رائحة القطران في زحفه

سم يعرِّي ذلَّنا العاري

* * *

أو . . ها . . ليـ . . ليشْ!

يا ألف أهلا، ألف سهلا، ألف مرحبا

بموكب العرس الجديد

يغشى حمانا زاهيا . .

مدججا بالنار والحديد

ياباعة الكاز، هلا . .

يامرحبا بالسادة الرعاة

أهلا بقطعان البقر

بيوتنا مفتوحة لكم

قلوبنا مفتوحة لكم

حتى قبور أنبيائنا مفتوحة لكم!

-٩-

هذه رايتي . . كفني

وفلسطين، كلُّ فلسطين في قهرها

وجلال انتفاضتها . . وطني

أرضُها من دم الشهداء

والسماواتُ ملأى بأرواحهم

وقلوب الأحبة

تبارك وحدتنا وهوانا

لكي يستمر الغناء

وأبحث عن حجرٍ نيزكٍ •

أستضيء به آخرَ العمرِ

رؤياه تشبه قلبي

- إذا غسلت نجمة الصبح أشجانه -

ونيرانُه تتساءل عن شجر العائلات اللصوص

فانطلق وتهلّل لموج الشوارعِ

يصحو وينهضُ

يملي إرادتَه في دروبِ الكرامة

يازمني

من تراثِ المخيَّمِ أرفع كوفيَّتي

رايةَ النصرِ . . أو كفني

العاشق.. وسيدة الياسمين

«إلى غالب هلسا:.
كان يحلم أن يكتب رواية عن دمشق،
لكنها ماتزال تنتظر!»

-١-

شهقةً شهقةً كاختلاج الصدى

كتلاشي أريج الزنابق

يرحل الأصدقاء القدامى

فجأةً . .

كطيور الخريفِ التي باكرتها

سهامُ الصواعق

فجأةً يرحلون

وتبقى كفزَّاعة الحقل، شيخ المناحاتِ

متشحاً بالأسى والجنون

لترحل يوماً رحيل اليتامى

شبحاً موغلاً، قبل موعدهِ،

في عباب المنون

-٢-

كهوفٌ كهوفٌ وأدمغةٌ تخفُّ

من بقايا صخور الجليد

تحاصر ورديَّ أحلامنا

في شتات القرى والعواصم

فمن كان مشتعلاً روحُه

بجنون الرؤى وابتكار الملاحم

فليجازف بعيداً عن صهوة الموج

«كيشوت» حلم جديد

وإن سلبته الطواحينُ أوسمةَ النصرِ

فليرتشف ما تبقى من الكأسِ

بين خيام الصعيد

* * *

في غمِار المعارك بين الخماسين والأسئلة

يطرد العاشقُ - الطفلُ خوفَ انتشار الزلازل

يتأبط أشواقه وهواجسه كفريك السنابل

يقول «وَداعاً» لأقبية الرملِ

داخل واحاتِ «طيبة»

فتزهر في ليلِ بيروتَ

شرفةُ حبٍّ وساحةُ حرب

مسوَّرة برماد الوجوه الكئيبة

-٣-

كان طفلاً كبيراً كبيراً

تجاوز خمسين مجزرةً

واكتوى قلبُه بصقيعِ المنافي

عشيَّة ألقى بكرسيِّه الخشبيِّ العتيق

وسجادةٍ من تراثِ الغجر

على شرفةِ الياسمينِ الدمشقيِّ

في بابِ توما

تمادى به وجع الذاكرة

فاحتمى بالسهر

آنست خوفَه نسماتٌ ملوَّنَةٌ

من خيالٍ صديق

راح يغزلها بين أنفاسه ولهاث القلم

تاركاً قلبه محبرة

لاختزانِ الألم

* * *

وعلى ضفَّةِ الحلمِ في بردى

هوى مثقلاً بجراحاتِ بيروتَ

مختمراً برؤى القاهرة

-٤-

وتحتار بيروتُ

كيف تداوي جراحاتها المزمناتِ

بجرحٍ جديد

فلم يبقَ بعد الخروج إلى البحرِ

لم يبقَ غير اللجوء إلى البادية

وفي البال تزهو ليالي عدن

كميناء حبٍّ قديم

ولا وقت للذكريات

فقد تعب القلب من حلمهِ

واستراح

وبغداد في رحلة التِّيهِ

تسكره . . ثم توقظه وتحاوره

بوجوهٍ ثلاثة

فيهبط سلَّمها باتجاه الدمار

وطرطوسُ في عرس نيسانَ

مجلوَّةٌ بالندى والأقاح

وأروادُ - مملكة العشقِ والصبوات

تبتغيه أميرا لحكمتها، فارساً للحوار

وعشتار في حلة البحرِ

لائبة مثل مهرٍ حبيس

تفيض بأشواقها ومفاتنها

لاحتضان العريس

ولكنه غادر الشامَ طيفاً من الوجد

في غيمةٍ من أثير

إلى أمه «آمنة»

تظلله، خِفيةً، من سموم الهجير

وتحميه من شرك المدن الآسنة

-٥-

أقول لسيدة الياسمين الجريح

دعينا قليلاً من الذكريات البواكي

وفاجعة المسرح العربي

في مرايا «كليلة ودمنة»

فأرى طيفه عابراً كرفيف الشعاع

مترع الروح بالوجع المريمي

فأعاتبه مشفقا: «أفلا تستريح؟!»

* * *

نيزك هلَّ في ليل صحرائنا

لايخاف احتراق الفراش

ولاينتمي لإله الضياع

جناحاه «ريمٌ وعمّارُ» في عشقه الموسمي

وفي أمسياتِ الحنان

وأشهى موائدنا إذ يطول السفر

فتّةٌ أُشربت بالتوابل في دارةِ الحلبي

ثريدُ الكوارع - يابركاتِ الحواري العتيقة! -

نعمةٌ..

أين منها خزائن كسرى وقيصرُ

والتاج والصولجان؟!

-٦-

في طقوس انفراط العشيّاتِ

عند اختلاط غيوم الأسى

وانطفاء الرحيق

ترشح الهمهمات المريبة بين خدور اليمام

بأن الفتى قتلته امرأة

كجنَّيَّةٍ من رؤى شهرزاد

كان يضنى من السهدِ

حتى يعرِّي أسرارَها

لفضولِ الرياحِ الطليق

ولكنَّ «وضاح» لم يكتشف

ما وراء صناديق أم «البنين»

ما أحسن برائحة النّارِ

خلف دموع الغمام

ولاأدرك البئر في غلمة الجسد المرمري

(من يماري أن لله جنودا من عسل؟!)

ومن قبله سحرتنا فرادى

ومن بعده أحرقتنا جميعا

وكانت حروف اسمها في قلوب الضحايا

تباشير مملكة من دم وشقيق

-٧-

ها هو الآن على ناصية الجسر الأخير

يرصد التاريخَ من خارجه

يُصعَق من رهبة ما يجري

على مسرحه الدامي

ومن هول الشقاء البشري

تبدأ الأسئلة العطشى

بإطلاق نوافير السعير

كيف يبني أمة من ورم التاريخِ؟

أو من رغوة الحلمِ؟

ويبني لغةً عصريةً

من حطبٍ أو من دخان؟!

أرضه من ورق.. مادت بهِ

مثلما ضاقت به شمس الوطن

كيف يختار بلاداً أرضها أقوى..

وينمو شعبه فيها كغاب السنديان؟

* * *

وحشةٌ، دوّامة الغربةِ لاترحمُ

ليلٌ عربيٌّ يتمطّى . .

خلف أسوار الزمن

والفتى تخطفه ريح النّوى

ينكسر القلب وحيدا

نجمة تعبر من نافذة المشفى

وتنسلّ بعيداً

لا يد تومي بمنديل وداع

لا فمٌ يشهق «آه» !

لا مقاهي بردى تدري

ولا دار الحنان

تُمسِكُ الوقتَ الذي أفْلتَ من أجفانها الوسنى

وضاع

غفلت حتى عيون الأهل عن مسح الألم

وطوت أصحابه غاشية الخمرِ

وخضراء الدِّمن

وحده . . كان وراء الليلِ

يرنو بتحدٍّ وازدراء للكفن

وحده كان القلم

١٩٩١

أحاديثُ العشيّات

«مع سامي عطفة.. بعد رحيله»

وليست عشيَّاتُ الحمى برواجعٍ

إليكَ، ولكن خلِّ عينيكَ تدمعا

«الصِّمة القشيري»

بهدوءٍ جليلٍ كصمتِ البحار

عاش أوجاعه بيننا . .

وكبا فجأةً كانطفاء الفتيل

جبلا من نبوغٍ ومكرمةٍ واصطبار

مثقلاً بهموم الدعاة الكبار

ولكنّه لم يتمتم بـ(آخ)

فكيف قسا قلبه وارتضى بالرحيل

تاركاً ، خلفه ثُلَّةً من فراخ؟!

❊ ❊ ❊

-١-

بيتُهُ

يسمو بنا القبوُ

ويدنو من هلالِ المئذنة

إنه مازال بالإيجار، لاتعجبْ

أخونا لم يسجِّل باسمه الغالي

ولو كوخاً

ولاهوَّم في أحلامه حيُّ القصور

فارتدع يا صاحبَ النسبةِ(*)

لاتلمس جراح الأفئدة

وانصرف عن واحة الأحباب

فالأسواق تدعوك لتكديس بقايا الأرصدة

لم يكن سامي ولاكنا شغوفينَ

كما أنتَ بقتل الأحصنة

فالدراري لم تكن يوماً صديقاً

للسباخ المنتنة

عشقه للأرض باقٍ في أصولِ السنديان

وله من سعة الأفقِ

جناحُ النور يهفو

(*) إشارة إلى بعض أصحاب النعم المستحدثة الذين كان يعرفهم الفقيد.

حاضناً كلَّ البرايا والعصور

حاصرته سحبُ القهر بألوان المراراتِ

وفازت في الرهان

فهوى مدثَّراً في صمتهِ . .

نخلةً ألوت بهاعاصفة الرملِ

وخانتها الجذور

والدنى من حوله تغلي

طبولاً وأهازيج وأجراساً

بحجم المهرجان

ماله لم يستجب للفرح المنقوع

في تلك القدور؟

أيخون القلبُ إلفه؟

بعد أن عاش مليئاً بالوعودِ الخضر :

من معرفة النفس . . إلى حلمِ الفدائيِّ

ومن تنشئة الطفلِ . . إلى همٍّ العبور

-٢-

نلتقي في شرفة الليلِ على فنجان قهوة

تبدأ الرحلة من حلم أبي ذرٍّ

ويزهو عنفوان الحلم في سيف الخوارج

وعلى سجاَّدةِ الأفق المدمَّى

يتهادى طيفُ عروة

حاملاً في دمه المهدور مأساةَ العدالة

أمَةٌ مالت بها الأيامُ . .

وانهارت صروح ومعارج

واستباحوا كأسَها حتى الثُّمالة

في صباها أبدعت كنزاً يضيء الكونَ

لكنَّ علوجَ النفط باعوهُ

فلم يبقَ لنا غير التكايا والقبور

هاتِ حدِّثنا عن الزِّنجِ . .

وعن روما . . وأمواج العبيد

ماالذي خبّأتَ في قلبكَ

حتى انهدَّ مصعوقاً

فما يقوى على حمل المزيد

صمتُنا طالَ . .

فهل من حرجٍ أن نستعيد الأسئلة؟

ما الذي حوَّشت من فكر المعريِّ؟

ومن حرية المعتزلة؟

ما الذي استخلصت من فلسفة الإغريقِ؟

أو حكمةِ إخوان الصفاء؟

كوبُ سمٍّ في يدي سقراطَ؟

أم خنجر غدرٍ في بلاط الخلفاء؟!

-٣-

كنتَ في غربتنا

أنسَ اللقاءات وقنديلَ السمر

باكراً فارقتنا . . لكنَّ ذكراك الحبيبة

لم تزل ملءَ عروقِ الغار والطيّونِ

ترنو لمواعيدِ المطر

موحشٌ مجلسنا بعدك . . يغشاه الضَّجر

شاينا دفلى، نسيمات العشايا كالأفاعي

والأحبَّاءُ . . وجوهٌ من حجر

بردى أقفر واديه . .

فمن مثلك يكسو بالأحاديثِ

فراغ الجمعة؟

قدوةً كنتَ لنا . .

لاتقبل الإبحار في مستنقع البغيِ

ولاترضى بلبس الأقنعة

فلماذا غبت عن موعدنا في ظلة المقهى

ولم تترك خبر؟

يا أبا أحمد لاتعتب على الخلانِ

إن قلَّ الوفاء

علَّمتنا لغةُ الموتِ الفلسطينيِّ

أن نستقبل البلوى كما العرسِ

فلا نأسى طويلاً لرحيلِ الأصدقاء

يدرج الموتُ أليفاً بيننا

داخلا في كسرة الخبز البهيميِّ

وفي هسهسة الماءِ

وأنفاس الهواء

يرتدي نجمة داوودَ

وينسلُّ إلى غرف النومِ،

دمِ الأطفال، أكباد االنساء

ربما يكمن في إضمامة الورد

وأقراص الدواء

-٤-

يعجب الراصد كم يخطف من أزهارنا

موتُ الفُجاءة؟

ولماذا يتهاوى شجر الأحباب في عز الربيع؟

وأنا أعجب أنا لم نمت بعدُ. .

كأنَّ الموتَ آخانا. .

لكي نبقى شهوداً في القطيع

ربما لم نكُ أحياء تماما. .

ربما مغمى علينا أو سكارى

ربما لم نكُ أمواتا. . ولا حتى سكارى

ربما متنا طويلاً دون أن نُعى. .

ولكنا نُسينا أن نُوارى

قُلْ لنا

كيف استطعت الموت فورا وجهارا؟

هكذا تذوي الرياحين ويبقى في روابيها فتيت من أريج

موتنا من معدن آخرَ . .

يفري في الحشا

يعتصر الروحَ اعتصارا

بومة تملأ وجه الساعة الدوار ، تحيا معنا

منذ اختلاج النطفة العذراء في قاع الخليج

نصحب الحمىَّ من المهدِ . .

ولاندري متى ندخل طور الهذيان

كل شيء ، كل مخلوق . . مريب حولنا

يا أبا أحمد هذا العالم الوحشيُّ

منفى ، غابة ، ليس لنا

نحتمي من موتنا بالحب أحياناً . .

ولكن لاتسلْ في أي طقسٍ وثنيٍّ

يبلغ الثلجُ حدودَ الغليان

تارةً نبتكر الفن سلاحا لابتدار المعركة

وعلى أرواحنا تشتدُّ كي تسكتنا خنقاً

حبالُ الشبكة

* * *

كلما صادفت خِلاًّ

وتواعدنا على كأسٍ وأفقٍ للحوار

لفَّنا غيمٌ من الوجدِ

على من غاب من أحبابنا

وتراءى شبحُ الموتِ غراباً بيننا :

«هذه آخر لقيا!»

من يلوم الموجةَ العشواءَ

إن ألقت على الشطِّ بآلافِ المحار؟!

-٥-

نحن أضيافك ياسامي كما عوَّدتنا . .

لم نخن عهدك، لكنا تآمرنا

لكي نجعل من ذكراك ضيف الأمسية

نحن جسر النكبات السود، جيل التضحية

كان بالأمسِ لنا باقةُ أحلامٍ

ولكنا أضعناها، وأدناها بحقدٍ جاهلي

واكتفينا باجترار الذكريات

كان من أحلامنا أن نزرع الراياتِ

من يافا إلى الأقصى وبيتِ الناصري

كان من أحلامنا

أن يتسامى وطنُ الحقِّ

على كلِّ الضواري والضغائن

كان من أحلامنا

أن يتعافى جسد الأمَّةِ

من كل الشظايا والندوب

كان من أحلامنا أن ننشر العدل على كل البيوت

كان من أحلامنا

أن نطلق الحرية الزهراء في كل الدروب

كان يا ما كانَ . .

لم يبقَ لنا

غيرُ أطيافٍ من الذكرى،

فراشاتِ خريفٍ بين فكَّيْ عنكبوت!

-٦-

نحن سربٌ يلتقي في حنوةِ الغار مع العشّاقِ

لكنّا غداةَ الفتحِ لم نركن إلى بيتٍ تجاريٍّ

ولم نأمن أذاه

موجع أن يتخلّى النهر عن ينبوعه الصافي

ويختار مصباً آسن التربةِ

موبوء المياه

كيف تحيا يا أبا أحمد في عصرٍ

أقام الليل سلطانا على مملكة الشمسِ

وصار النفط سلطاناً على الدين الحنيف؟

هاجر الأنصار ملفوفين بالخيباتِ . .

واجتاح المرابون بساتين المدينة

كيف تحيا بين تجار الدماء

. . ويتامى يتشهوّن الرغيف؟!

يا صديقي، بعد إحراق الموانى

ما الذي تفعله الجرذان في بحر المجاعه

غيرُ إغراق السفينة؟

-٧-

عشق العالم يستجلى خفاياه طوال الليلِ

حتى صار بيته

وشعوب الأرض أهله

وانطوى في بيته مستغرقاً بالعلمِ

حتى أصبح القبو الصغير

عالما رحبا مليئا بكنوز المعرفة

فمضى محتضنا عالمه البيتيَّ والكونيَّ

في حشرجة القلب الكبير

* * *

يا أبا أحمدَ

من ينسى سماء البحر في عينيكَ

والقدموس عرزالٌ يضمُّ الروحَ،

مرسوم على شالِ القمر؟

هاتِ حدِّثنا عن الشعر الذي

يشدو بآلاء الحجر

غافلاً عن محنة الأمِّ

وعن فاجعها اليوميِّ

عن أغلى طموحات الشباب

تنتهي أجسادهم منثورةً كالقمحِ

في حضن التراب

- يملأ الغليون بالتبغ الخمير

ويغشّي أفق عينيه رفيف من دخان

ثم يلقي كِلْمةً كالبرقِ في لجٍّ السحاب :

«شعركم ياصاحبي، خمرٌ . . ولكنْ

مُزِجت بالقطران!

طفلة تلهو على الشاطىء بالأصدافِ

لاتدرك ما يرتجُّ في غور العباب!»

هاتِ حدِّث عن خريف البطرِيَركْ

(وطن صحراء، لم أختره صحراء بنفسي

إنما أعطوه لي في هذه الحال الزرية . .)

من يهز الزمن الراكد في تلك الكهوف الحجرية؟

قلتَ يوماً : «إنه الحب . . » ولكنْ

من يحب العدم الرابض ملء الأبدية؟!

لاتسل كيف يعيش الجنرال الفحلُ

قرنين وثلث القرنِ

في جوٍّ خرافيٍّ معبا بالصديد

ويعيد الزمن الساجي إلى عصر الجليد

ثم يخبو ميِّتاً، قبل مجيء الموتِ،

جذعاً نخراً، دون وداع

هكذا تقتلع الأعشاب أحجار القلاع!

-٨-

يا صديقَ الأملِ المغدورِ،

لاطاقة للشعر بإخفاء تباريح الغروب

ليس في مائدة الخنساءِ

ما يغني عزاءَ الروحِ

أو يشفي جراحات القلوب

وجدنا جمر اشتهاء الأرضِ للأمطارِ

والغيم الذي شلناه في الأحداقِ

لايكفي لإرواء السهوب

يا صديقي، نحن مشتاقون . .

هل حطَّ بك الشوق على صدر فلسطينَ

ولم تثمر وعود الزيزفون؟!

تاركا أصحابك الباقين نهباً لاحتمالات الجنون

أين ألقت بك ريح الغيبِ؟

في أي فَلَكْ؟

ما تعوَّدنا على طول الغياب

خنقتنا غربة الروحِ

ولاندري متى تنكشف الغمةُ

لاندري متى ترحل عن أعيننا الرمداءِ

أسراب الذباب!

وأرى من حقنا أن نسألك:

كيف تجفونا وتنسانا..

ولم تذكر لنا من زعَّلك؟

أي ريحٍ أخَّرت مركبك الميمون عن موعدنا؟

أي موجٍ حوَّلك؟

أي خسران يصيب القدر الأعمىَ

ترى، لو أمهلك؟!

يا أبا أحمد مشتاقون..

مشتاقون حتى سكراتِ الموتِ

مشتاقون لك

لاتسلنا كيف نحيا . . أو نموت

نحن نهر ينتمي مثلك للنبع الأصيل

ربما نُهرس تحت العجلاتِ الهوجِ

لكن لن نموت

قبل أن نفرش درب القدسِ،

درب الجلجلة

برماد المرحلة

ونرى جيل المنافي

عائدا يبني مغانية القديمة

بين حيفا والجليل

فهنيئاً لك أن أبعدت

عن مسرحنا الدامي

ولم تشهد ختام المهزلة

تشرين الثاني ١٩٩٢

أسئلة لم تكتمل

«إلى محمدعمران»

١- كنا معا . .

كنا معا . . وفي حمى ضلوعنا

ترتع أسراب من اليمام

وفي ليالي بوحنا

يدوخ أبهى ياسمين الشام

ننسج للعشاق من نسائم البحار

بيارقَ الحرِّيّة

نبني معا مملكة الأحلام

ثم ارتحلنا لاكتشاف كوكب الجنون

قيثارتي تهشمت ألحانها

في نشرة الأخبار

ونايه تقتبس النار التي

تكنّها جوانح الزيتون

قلبي غدا كعوسج القفار

وظل في هديله أندى من الغمام

لكنّ ريحاً كالتجلّي خطفت قلبي

وحطّت في جبال الريح

وصاحبي تسكنه أوجاعه

يمشي على الجمر ولايبالي

يوغل في صوفيَّةِ الخمرِ

ويستجلي خفايا رقة الماءِ

وأسرارَ الهوى المكنون

بين النحلِ والرحيق

من زيته أصفى منارات البحارِ

تستمدُّ وهجها

وترتوي قبائل الدفلى

وأشواك الطريق

لكنه يمضي . . ولايبالي

الشاعر المسكون

بالخبز والضياء والحرية

يسمو على أوجاعهِ

يبحر في مجاهل العصور

منشطرا ما بين وعد وانخطاف وجنون

كأنه النسغ الذي يجري عميقاً في الجذور

يلوِّنُ التيجانَ والأكمام

كأنه رسالةُ السماء

إشراقةُ الكِلْمةِ في معارك الحرية

أمام طغيان قوى الظلام

آب ١٩٩٦

٢- بعد الرحيل

وجع كإسفين الغراب يشق تاج القلبِ

إعصار يطير البحر خوفاً من سنابك زحفهِ

ويلوذ بالشطآن

ويدوخ في أقصى كهوف النفسِ

موج الأسئلة :

من أي ليلٍ زئبقيٍّ خانقٍ

تتدفّق الغربان؟

من يستطيع قراءة الأجل المعلَّقِ

في بروج الغيبِ؟

هل من راصدٍ يجلو لنا

ما تضمر الساعة؟

فَلَكٌ خرافيٌّ من الظلماتِ،

غاباتٌ من الألغازِ،

أسئلةٌ وأسئلةٌ تشع وتختفي عبثاً

على شرفات أسئلة جديدة

وتغوص في حمّى هواجسها بلاقاعٍ

أميرتُنا . . يتيمتُنا القصيدة

* * *

رويداً . . يا أبا الوعدِ

أترحل كالندى في زعفران الصبح دون وداع؟

كأنك لم تكن فينا أمير البوحِ،

نجمَ المنتدى، فيثارة الوجدِ

ركامٌ من سديمِ الغيبِ يفصل بيننا . .

ويضاعف الأسوار

فمن يقوى على تصديق هذي اللعبة السمجة؟

ومن يقوى على تكذيبها في اللحظة الحرجة؟

ومن يقوى على إعرابِ ما في لوحها الزيتيِّ

من أسرار؟

مرايا من دمٍ ورماد

غيومٌ مثقلاتٌ بالضَّنى والضِّيق

طلاسمُ مالها أفقٌ

تظلُّ الروحُ في أمدائها طفلاً

حسيرَ الطَّرفِ شبْهَ غريق

* * *

ويسأل قلبي طيور الخريف :

لمن ينتمي عاشق السنديان

لإوجاعهِ

أم لوجه الحبيبة؟

أم لأرضٍ تناثر أطفالها

تحت قوس النجوم؟

أبا الوعدِ أطلق حضوركَ

في كل حرف جميل

وفي شهقات البراعمِ،

في نسمات العشايا على شرفة البحرِ

بين نزيف الدوالي

وفي نفحات الطيوب

في حضورك ما من شجيٍّ

يطيق الرثاء

وليس لنا في النوى من عزاء

ولكن نهر الأسى موغل في القلوب

* * *

أبا الوعدِ مشوارنا ما اكتمل

فلسطين كانت لنا حلماً

من سهادٍ وقهرٍ

ولما تزل

والرغيف المتوَّج بالزيت والزعتر الجبلي

يروغ ويطفر من عتبات المدارسِ والدورِ

يغرقنا بالخجل

ورايتنا يوم وشَّيتها بحروف الضياء

وباركت حريةً

لايليق بها سوى الشهداء

يومها . . لم تكن راغباً بالرحيل

النبيذ النواسيُّ أشهى موائدك الوارفة

وجنِّيَّة الشعرِ ظلت حفيتك الخاطفة

لم تكن لتبيح السباحة في البرك الموحلة

وروحك لم تفقد البوصلة

إلى ملكوت السنا والصفاء

فكيف رحلت إذاً دفعةً واحدة؟

ونحن نوقع أعمارنا بألوف الشظايا

ونرحل في كل يوم شظايا

* * *

حدِّق معي، حدِّق هناك

قمر يغادر عدوة الوادي

ويدخل في المحاق

هل جاء وقتٌ نعبر الجسر الأخيرَ

بلا وداع؟

مهلا . . فلسنا في سباق

للجسر قاعدتانِ

من دفءٍ سماوي . .

وطين:

رحمٌ هنا . .

قبرٌ هناك

مهلاً . . فقد طاب اللقاءُ

ولامناص من الفراق

فلمَ التعجُّلُ والسباق؟

وتقول لي: ثمن التخطِّي

ثمن اجتراح المستحيل

جيل الضحايا . .

هل يكون سواه جسر المرحلة؟

وأقول: دعني أملأ المصباح من زيت المعرِّي

وأُعدُّ كوخي قرب زاوية الخطيئة

دون التماس من قريش

وأقول: كم أرهقت قلبي

في ضباب الأسئلة؟

كيف نأتي ونرحلُ

* * *

من غيهبٍ دافىء مخملي

إلى غيهب من صقيع

قصة تتسلّى بنا من قديم الزمان

وفي سكرة الليل

بين اشتعال الحشا

واختناق الحوار

تفتح الهندُ بوَّابةً للعزاء

نلتقي في ضيافةِ طاغورَ

أسئلةً طعَّمت بالبهار

نلوذ بأفياء بستانه كطيور المنافي

ونقطف ما نشتهي من ثمار



ياصديق الفراشات والعشب والشهب العاثرة

هل وجدت الأمانَ الذي تتشهاهُ

في جنة الوالدة؟

هاتِ حدِّث ضيوفك عن هذه الصفقة الخاسرة

أكانت تُسمَّى «حياة»؟

تودع الأمُّ أطفالها تحت ريش الغمام

وتوغل في الزرقة السادرة

ثم يمضون في إثْرِها

حبَّةً حبَّةً من ندى أو رغام

فُتاتَ خيوطٍ من اللعبة الدائرة

هاتِ حدِّث ولاتكترث بالأفاعي

تجدد أعراسها في بروج الحمام

هاتِ حدِّث . .

عسى أن تعانق أرواحُنا في حضورك

سدرةَ المنتهى،

ألقَ اللغةِ الشاعرة

فما أنا إلا كما أنت يا صاحبي

أشتهي أن أنام طويلاً

على صدر أمي

بلا مقرىءٍ أو بخور

أتمنحني كرفاق الصبا

فسحةً في جوارِك؟

أتأذن لي بالعبور؟!

تشرين ١٩٩٧



أغنيات.. لأعراس الجنوب

-١-

الدجى . . وسعارُ الخنازيرِ،

رائحةُ الدم، هولُ الدمار

وأطياف نهرٍ من الذكريات

نلوذ بها كي تخفف عنا غيومَ الحصار

وريحانةُ القلبِ شهدُ الحياة

تجدد لي عرسها في ربيع الجنوب

وتحيي مآثر جدتها في رحاب الفرات

* * *

الدجى يستدير بنا خانقاً

كسمومِ الضُّحى

والسلام الخليجيُّ يدنو

أشدَّ وبالاً وتهلكةً من جميعِ الحروب

وأعصابنا تقطع العمر بين فكَّيْ رحى

والدروب مغلَّقة بحراب القبائلِ

أو بالكلاب

ولانجم في الأفقِ، لانسمة من رجاء

ولا راحة من عذاب

لو يجيء الردى بغتةً . . لاسترحنا

ولكنه يتناسى ضحاياهُ

حتى يطول اجترار الشقاء

أين نمضي؟

وكيف نعيش ونعشقُ؟

ولا موت يحنو علينا . . ولا مقبرة

سترضى بستر جرائرنا في التراب

أمة . . صيتها في السحاب

ونحن، بنيها اليتامى،

شظايا لقىً لم نغادر بطون الحفر

وطيورُ الجحيمِ التي فقّست في ضفاف الخزر

تستبيح ينابيعنا

وتسمِّم أجواءنا

وتسدُّ البحار

ولا من ملاك يطير بنا خارج المجزرة

أمّةٌ . . أدمنت في غياب النُّهى والعدالةِ

ذلَّ الغياب

كلُّ ظلٍّ يذكِّرها بالتتار

كلُّ ريح تفجِّر عاصفةً من دوار

وأعداؤها أكلوا لحمَ أبنائها

ورفاتَ الجدود

ولن يكتفوا بابتلاع صخور القمر

سلاماً على كوكبٍ كانَ

قبل اختراع المنافي

وقبل انهيار السدود

واحةً للبشر

-٢-

هارباً من دبقِ العيشِ البهيميِّ

ومن قيءِ التكايا

وخفافيشِ القبور

حاملاً ملءَ حنينِ الروحِ

أشجانَ المنافي

والتياعاتِ العصور

مدنفاً ألقي بأوجاعي وأحلامي . .

على أكتافِ صور

* * *

الدجى يبتلع الآفاقَ والأعماقَ

من صومعة الليزر في «ناسا»

إلى خيمة زرقاء اليمامة

وموالي مدنِ الرقِّ،

ملوك القطران

يسلخون الليل غرقى

في بحيرات المرايا والعطور

ويعيدون اكتشافَ الجوهرِ المكنونِ

في لجِّ الغواني والدِّنان

وأنا أنسلُّ من جلدي كهنديٍّ

رأى في مهرجان النارِ جسراً للعبور

بعدما ضيَّعت دربي

وأضاعتني أكاذيبُ الدروب

أمتي، يا أمَّنا . . لو يملك العاشقُ حلمَهْ

لافتديناها كما يفعل عشّاقُ الجنوب

[أمتي . . كان لنا في كتب التاريخ أمة

ثم باعوها بكيل من قروش

واستباحوا لحمها الدامي

لإتخام الكروش

واستعاضوا عن بنيها وأمانيها

بأشباه رجال فوق أشباه عروش

وإذا داهمهم طيرٌ غريب . .

وطغى سيلُ الخطوب

زعقوا : «ياعمَّنا سام، أغثنا!»

فيوافيهم بأصناف البغايا والجيوش]

أمتي عند ائتلاق الذاكرة

بحر آياتٍ من الرحمة والحبٍّ

وأبراج مناراتٍ

تصون الحقَّ من بدرٍ إلى حطّين،

فردوسٌ محاط برماح السنديان

رايةٌ غمَّسها في قلبه معروفُ سعد

وأضاءتها جراحُ الموسويّ

فانتشت في كل نفسٍ ثائرة

وازدهت في كل وعد

وأنا أرنو إلى لألأئها يخفق في شمس الجنوب

كلّما ودَّعتُ في الدرب شهيدا

هلَّ مصباحٌ جديدٌ فوق أعراف الجبال

وإذا أمعنت في ليل السُّرى

طالعني وجهُ بلال

قمراً يصعد محفوفاً بأعراس الدماء

من هنا . . أبدأ تاريخي بفجرٍ

رسمته أغنياتُ الشهداء

لوحةً وردية الأطياف في صدر السماء

فاغسلي روحي في مرآتك الخضراء

يا ثورة أحبابي . . يا نار الجنوب .

-٣-

يا بنَ أمي

يا يتيماً تنهش الغربانُ لحمَه

أنت وعلٌ نازف في غابة الدفلى

ومن حولك آلاف الذئاب الأطلسية

عربيٌّ أنت زنجي وهندي

مليء بالأحاجي والغيوب

وهمو آتون من مخبر «فاوست»

إلى حيث ليالي شهرزاد

شبكت أعراسها الحمر بمنديل البكارة

عربي أنت لاتملك إلا الروح

سكرى بالمرارة

وهمو آلهة العصر وحراس الحضارة

يا بن أمي في فلسطين وفي وهج الجنوب

عربيٌّ أنت لاتعرف آداب الحوار

لغةٌ من زئبقٍ

مدهونةُ الأقلام بالزيتِ الخليجيِّ

ترى العالمَ مُلكاً هَمَيونياً

لرعيان البقر

نخلةٌ شاخت وجنَّت

بين حيطانِ المقاهي

وأضاليل الخلاص المنتظر

وأنا أسعى لتجديد صباها

بين أشبال فلسطين وفرسان الجنوب

يابن أمي

رصرصِ الملحَ على الجرحِ

ولاتخشَ من الثعبان إن أطلق سمَّه

أنت منذور لتحرير فلسطين

وتطهير الجنوب

أنت مبعوث لكي توقظ أمَّة

-٤-

غيمةٌ في الأفق رقطاءَ

كتيجانِ الجزيرة

تدَّعي أن تقاليد الكفاح الوطنيّ

في سبيل الأرض إرثٌ بربريّ

وعلينا أن نرى إشراقةَ النجم الجديد

في دياجير المدار العالمي

ونواري في حنايانا الكسيرة

كلَّ أسباب الحروب

* * *

عجباً كيف يزور النوم أجفانَ الأعاريبِ

وأطفالُ الجنوب

سرق الأعداءُ منهم

نعمةَ النوم وأنداءَ الأمان

أترى مات بنا الحِسُّ وغطّته الطحالب؟

لو شعرنا بعذاب الطين تحت المارج الضاري

وأدركنا تباريح البيوت

لو تحسَّسنا أنين السمك المذعورِ

في أشداق حوت

لو نعاني وجعَ العشبِ وأحزانَ الرماد

لونعي أسئلة الأطفال في ليل السهاد

لالتقينا أمةً واحدةً كالبحرِ

في ساح الجنوب

. أترانا لم نصل قاعَ التردِّي؟

أم ترى لم نستفد من كل مامرَّ؟

ومن يقوى على كشف الحساب؟

هل قضى طاغوتهم سراً

بإحراق الجنوب؟

جاعلا من بيته الأبيض - وكرِ العنكبوت

بؤرة للقتل والإرهاب والسلم الكذوب؟!

ولماذا لوَّحت جيهان بالوردِ

لأركان الحروب؟

أتراها لم تكن في موسم الموتِ

ولم تشهد ضحاياه الأخيرة؟

يابن أمي

أنت في حضرة أمريكا:

تأدَّب.. وتعلَّم

كيف تنسى أرضَك الأمَّ وميراثَ الجدود؟

ثم لابأس بأن ترتاح أجيالاً وأجيالاً

ولو في قاع أهوال جهنمَّ

آهِ يا عرّافةَ السلمِ الخرافيِّ ارحمينا

نحن في حضرة أمريكا..

فمن يقوى على رفع جباه الذلِّ

عن نعل الأميرة؟

كانت النِّيَّةُ أن نهديك تاج العصرِ

من أحداق موتانا . .

ولكنا نسينا

آهِ يا جيهان، كعكُ العيدِ جافانا

وفاتتنا مواعيد الخميرة

فاعذرينا يا أميرة!

-٥-

تسحق الطاحونةُ العشواءُ أعصابَ الملايينِ

وتمتص الدماء

ثم تسترخي على أحلام عهدٍ قيصري

إنها طاحونة القهر التي

بتنا وكابدنا طويلاً

في حماها الأبويّ

وفقدنا بين فكّيْها رياحينَ الرجاء

وذهلنا . . عندما لاحت ذراها المترفة

وهي تستخزي أمام الجبروت العنصري

* * *

يقف الشعر حيال القوة العشواءِ

مبهوتاً كسيحا

عالم الطغيان والحقد الموشّى بالأسيد

ومثار الأوبئة

شاد للحرية العزلاء تمثالا - ضريحا

وأنار الشعلة المنطفئة

يابن أمي

نحن في مرآتهم قطعان أنعامٍ

وأحواض زيوت

فاحتفظ بالنار يقظى

واحتفظ بالذاكرة

وتنكَّر بالسكوت

وترصَّد في فِناء الهيكل الأبيضِ

سمَّ العنكبوت

يابن أمي

أنت فوق البرزخ الدامي

ولاوقت لتختار قناعاً من رماد

فتراجع للهلاك

أو تهيّأ لميادين العراك

وتمسَّكْ ساعةَ الهولِ بآياتِ الجهاد

تحتفظْ في دمك الغالي بمفتاح البلاد

* * *

أرضنا السمحاء ليست قالباً هشّاً من الجبنِ

ولا سوق جوارٍ وتوابل

يالصوصَ البحر والبستانِ،

أعداءَ السواقي والسنابل

أرضنا طيبة فيحاء . .

أحنى من سويداء القلوب

تسع الأفلاكَ والدهرَ

وما طاب لها من كائنات

إنما أضيق من أن تحتوي ظلَّ الغزاة

هذه الأرض الولود

هذه الأم التي تصبر أجيالاً على البلوى

وتغضي وتجود

هذه الأرض لنا من فجر بابل

وإذا الساعةُ دقَّت

واستطارت كلْمةُ السِّرِّ بأرجاء المدى :

«الله أكبر»

فلهم أن يشربوا البحرَ

ويحسوا زبدَ الأمواجِ

أو فيلرجعوا من حيث جاؤوا

نجمةُ البشرى توافيني بأعماق الجنوب

موجةٌ رعدية تخرج من تحت الرماد

طفلةٌ تقرأ أيّامَ الصليبيين،

تستعرض أشباح المغول

ثم تلقي نظرةً جذلى على ساعتها . .

وتقول :

«إن ما سمَّوه (إسرائيل) وابتاعوا له

مجلسَ (القمل) العتيد

وأناخوا برؤوس الأمم المتحدة

(تارة نلفظها : المنتحرة)

لم يكن يوما . . وهيهات يكون

غير كِذْبة

نسجوها من أساطير القرون

دعوةً خاوية الجوف كعجل السامريّ

وإذا استعصت على كل قوانين التحدِّي والكفاح

فلتعش سيِّدة الدنيا . .

بإلغاء الوجود العربي !

* * *

ثورة الأحرار والحق المبين

أيقظينا . . أيقظي حلمَ الملايين

اكشفي أغشيةَ الداء الدفين

إنْ نحدِّق في جراحات فلسطينَ

نجدْ صورتنا تدمى

وندرك

أن مشروعَ بني صهيون

مهما ألبسوه

من ضروب الأقنعة

ليس إلا ثكنةً أو قلعة مستتبعة

لاستطالات الوباء العالمي

-٦-

الدجى يعتصر الحلمَ ويجتاح الدروب

وأنا ضقت بخوفي وانتظاري

إن في قلبي نسغاً

من ينابيع الجنوب

وهو لايسمح لليأسِ

ولاأغربةِ الشؤمِ

بأن تقرب داري

وجيوشُ العالمِ المسعورِ

لاتملك إلغاء اختياري

هذه أغنيتي . .

أنثرها كالضوء في كل اتجاهِ

ليس في مملكة الروح جنوب أو شمال

أمةٌ واحدةٌ . .

رغم احتدام السرطان العالمي

وطن يولد من جرح تحدّى

دولةَ الشرِّ وجيشَ الاحتلال

من هنا . . من خندق الثورةِ،

درب الشهداء

نبدأ الرحلةَ . . لانخشى

ألاعيب طروح النفط بالنارِ

ولاأنياب تجار الحروب

من هنا نعلن أفراح الثغور

من هنا يبتكر العشاق أسلوباً جديداً

لمواعيد القلوب

من هنا . . يا أهلنا الغالين

من حرية الإنسانِ والأرضِ

وأعراس الطيور

نبدأ الزحف معاً . .

من هنا نرفع رايات النشور

وغداً نمضي إلى مائدةِ الكرملِ

أمواجاً ثقالا بالأغاني والطيوب

وأنا أحمل في قلبي زادَ العمرِ

من خبز الجنوب

وإذا ارتجّت ضلوع الصُّورِ

واشتدَّت أهازيج الرحيل

بين صيدا والجليل

فليكن لي من مناديل الأحباء جناحانِ

حفيَّان بألوان الغروب

وليكن مهدي من عشب فلسطينَ

مندَّى بالبخور

جئتُ لاأحمل إلا الروحَ

يا أرضَ البطولات اقبليها

فبكل الحب، كل الحب والإيثار ألقيها

على درب فلسطين

فداءً للجنوب

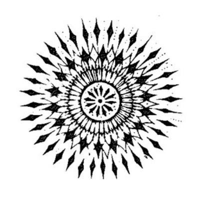
١٩٩٢



الفهرس

١٥٠٠ ط١ /٦/١٩٩٩







الطباعة وفرز الألوان مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٩

سعر النسخة داخل القطر

١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية

٢٠٠ ل.